



Mohamed Do Siraj.- M'hamed Boucetta: Alwatan awalan. Moudakirat fi as-siyāssa wa al-ḥayāt (ad-Dar al-Bayda: Al markaz at-takāfi lilkitāb, 2021), 512p.

محمد الضو السراج، امحمد بوسنتة.- الوطن أولاً، مذكرات في السياسة والحياة (الدار البيضاء: المركز الثقافي للكتاب، 2021)، 512 ص.

صدر مطلع سنة 2021، مصنف تتبّع ذاكرة الراحل امحمد بوسنتة، أحد الفاعلين في تاريخ الحركة الوطنية المغربية، يحمل عنوان: امحمد بوسنتة: الوطن أولاً، مذكرات في السياسة

والحياة. وكان الأصل في هذا العمل حوار صحفي ضمن برنامج حمل عنوان "الشاهد"، أنتجته القناة الأولى المغربية قبل سنوات. وقد انبرى الإعلامي محمد الضو السراج بتنسيق مع الراحل محمد العربي المساري لإعداد تلك الشهادة للنشر كوثيقة مكتوبة بناء على رغبة من صاحبها.

وبعد مقدمة بقلم محمد العربي المساري، الذي تابع مسيرة الزعيم الاستقلالي عن قرب، وتمهيد لمحمد الضو السراج، تستعيد مذكرات الراحل امحمد بوسنتة تفاصيل من ماضيه على امتداد أكثر من 500 صفحة، وعبر اثني عشر فصلاً، ذُيّل كل واحد منها بملحق تضمن وثائق وصور تحيل على قضايا وأحداث تناولها ذلك الفصل، تبدأ بالنشأة الأولى والدراسة ثم المسار النضالي والكفاحي منذ معركة الاستقلال إلى مسارات المطالبة بالديمقراطية وتوسّل التغيير.

يبتدئ بوسنتة بؤحه بالإفصاح عن سنوات الصبا بحي قاعة بنهيز بالمدينة العتيقة في مراكش، حيث كانت النشأة في كنف أسرة مخزنية، سواء من جهة الأب، أو من جهة الأم (عائلة ابن سليمان). ثم ينتقل إلى السنوات الأولى للدراسة بداية الثلاثينيات من القرن الماضي، بالمدرسة الابتدائية المسماة آنذاك "مدرسة الأهالي بن يوسف"، (l'école indigène de Benyoussef) ، بمدينة مراكش، والتي يعود فضل التسجيل بها لخاله الفاطمي بن سليمان.

وبعد حصوله على شهادة الدروس الابتدائية انتقل إلى "كوليج" سيدي محمد (ثانوية محمد الخامس حالياً)، الذي كان يديره غاستون دو فردان (Gaston de Verdun)، لكن الدراسة هناك لن تدوم سوى سنة ونصف قبل الانتقال نحو مدينة فاس بعد تعيين والده قيماً على الدروس بجامعة القرويين.

وتكشف المذكرات أن فاس شكلت محطة أساسية في تعميق الروح الوطنية لدى ابن الحمراء، حيث كانت شعلة متقدة في الثقافة ومشتلا للوطنية. وفي كوليج مولاي إدريس،

واصل بوسنة تعليمه ومعانقته لقيم الوطنية، سواء عبر التكوين أو الرياضة أو أنشطة التمثيل والمسرح. ويستعيد الشاهد بقوة تفاصيل تلك المرحلة المؤسّسة ودقائقها على المستويين السياسي والرمزي، كاشفا عن حيثيات نشاط الخلايا النضالية، بالرغم من نفي كثير من الوطنيين، وكيف أفضى ذلك إلى تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال في 11 يناير 1944. وفي ذات السياق، يورد لقاء أحمد بلافريج ثلاثة أشهر قبل الإقدام على هذه الخطوة، بالتهامي الكلاوي، في محاولة لجس نبض الأخير، وإطلاعه على أن الحركة الوطنية تنوي القيام ببعض الإجراءات النضالية، وهو ما علّق عليه الباشا قائلا: "إذا لم يكن لديكم سلاح وليس بجانبكم 'الكنوس' [الأجانب] فارفعوا الفاتحة وتوكلوا على الله!" (60).

عاد الفتى إلى مدينة مراكش سنة 1943 لإتمام الدراسة بثانوية مانجان (Lycée Mangin) (ثانوية ابن عباد حاليا)، للحصول على شهادة البكالوريا. وكانت هذه العودة مصحوبة بشحنة وتجربة نضالية مكتسبة بفضل النشاط ضمن خلايا الحركة الوطنية، مما أهله لتحمل مهمة تأطير الشبيبة بمراكش وبعض خلايا الحزب الوطني، ومنها خلية "باب الدباغ". وبعد الحصول على البكالوريا، اختار بوسنة متابعة تعليمه العالي بكلية الحقوق في باريس صحبة شقيقه عمر. ويكشف أن تحقيق ذلك ما كان ممكنا، لولا توضيحات والدته التي لم تتردد في بيع متجر وراثته عن أبيها الحاج محمد بن سليمان بسوق القصابين في مراكش لتغطية المصاريف الضرورية.

انتقلت بنا المذكرات إلى مرحلة فرنسا حيث مكث الراحل ما بين أكتوبر 1946 ونونبر 1950. هناك تواصل تكوينه النضالي، فقد عمل حزب الاستقلال على إنشاء عدة نوادي كانت تحتضن منتديات فكرية ومحاضرات في مواضيع علمية وثقافية مختلفة، كان يتطوع لإلقائها أساتذة كبار منهم لوي ماسينيون (Louis Massignon).

عاد بوسنة إلى المغرب في صيف 1950 بعد إتمام الدراسات العليا لينضم إلى هيئة المحامين بالدار البيضاء. كان ذلك مسارا مهنيا جعله يقف للدفاع أمام هيئات المحاكم عن المناضلين وزيارة المعتقلين في السجون والمنافي في عدة مناطق. خصوصا أن نضال المغاربة سيتأجج أكثر في مرحلة الخمسينيات، بعد إقدام سلطات الحماية على نفي رمز البلاد السلطان سيدي محمد بن يوسف. فقد احتدم الصراع بين المقاومين المغاربة والمستعمر الفرنسي، الذي شكلت بعض عناصره جماعة أطلقوا عليها اسم "اليد السوداء" (La main noire)، وهي عصابة إجرامية قتلت كلا من عبد الكريم الديوري والطاهر السبتي بالإضافة إلى أشخاص آخرين في مختلف المدن المغربية، بل كانت، يحكي بوسنة، قد استهدفته هو نفسه، غير أنها قتلت خطأ بدله المحامي عمر السلاوي (171).

تناولت الشهادات في مستوى آخر محطة إيكس-ليبان (Aix-Les Bains)، التي وضعت الترتيبات الأولية لاستقلال المغرب. وأكدت على أنها كانت مرحلة ضرورية، في إطار التطورات التي عرفتتها القضية الوطنية. إذ خلقت أرضية مهمة لمفاوضات الاستقلال. وتكشف عن دور بوسنة الذي تجلّى في ربط الاتصال اليومي بين أحمد بلافريج المقيم بجنيف بسويسرا، والوفد الاستقلالي المشارك في اللقاءات المكون من محمد اليزيدي، عمر بن عبد الجليل، عبد الرحيم بوعيد والمهدي بن بركة.

وسجلت الشهادة كذلك بأن تصريح التهامي الكلاوي يوم 25 أكتوبر 1955 أثناء زيارته لمجلس العرش، الذي تضمن الإقرار بمحمد بن يوسف كملك وحيد للمغاربة، كان صفة قوية للفرنسيين ودفع بالقضية الوطنية نحو الأمام. فقد توالى الأحداث سريعا عقب ذلك، وعاد الملك إلى فرنسا، وهناك ألقى ما عرف بتصريح لاسيل سان كلو (La Celle Saint-Cloud) الموقع من طرف محمد الخامس وأنطوان بيناي (Antoine Pinay) وزير الخارجية الفرنسي. وأوردت بأن عبد الرحيم بوعيد هو من ساهم في صياغة هذا التصريح بمعية الأمير مولاي الحسن، الذي لعب دورا كبيرا في بلورته وتحريره، إذ تم فيه الإقرار بعودة محمد الخامس إلى عرشه.

انتقل بوسنة في سرده إلى سنوات الاستقلال الأولى التي تحمّل فيها مهام سياسية عديدة خاصة في الشؤون الخارجية. واعتبرها مرحلة بناء عكّرت صفوها بعض الانفلاتات السياسية، نتيجة للتهور وسوء التقدير. وفي ذات السياق صرّح بتأنيبه لبعض قادة حزب الاستقلال، وحملهم مسؤولية الانشقاق والتصددع التي ستعيشه الحركة الوطنية حينها.

حمّلت المذكرات المسؤولية كذلك عن اختلالات المرحلة لوزارة الداخلية، واعتبرتها المسؤولة عن الوضعية المفبركة وغير الطبيعية حينها. فقد فتحت، يقول بوسنة، هذه الوزارة بابا متسع الخرق بعد أن أسست أحزابا إدارية عرقلت مسار البناء الديمقراطي. واستحضر في ذات السياق تجربته الشخصية بعد أن وضع ترشيحه للانتخابات التشريعية بمدينة مراكش، حيث اتضح جليا له أن حزب الاستقلال لم يعد مرغوبا فيه. بل إن عامل المدينة، الطاهر أو عسو، أكد له مسبقا بأنه لن ينجح في الانتخابات.

دفعت هذه الوضعية صاحب المذكرات بعد مغادرته الحكومة سنة 1963، إلى التفرغ لممارسة مهنة المحاماة إلى حدود 1974، السنة التي توفي فيها علال الفاسي. غير أن ذلك لم يشغله عن تتبع مجريات الحياة السياسية في البلاد. ويسترجع في شهادته بعض المنعطفات حينها، خاصة التوترات التي عاشها المغرب والجزائر في إطار حرب الرمال (1963). ولم يخف لومه لمجموعة من المناضلين المغاربة ممن انصاعوا للأطروحة الجزائرية مرتكبين أخطاء فادحة،

التي كان هدفها الأساس، يقول، هو طمس مطالب المغرب وطي ملف النزاع على الحدود بين المغرب والجزائر وإفشال محاولات تصفيته. علماً أن دور المغرب والمغاربة، يؤكد، كان جوهرياً في تحرير الجزائر، رغم مضايقات فرنسا للمغرب.

استحضرت المذكرات حدث وفاة الزعيم علال الفاسي في مدينة بوخارست برومانيا، وهو في اجتماع مع الرئيس الروماني تشاتشيسكو (Nicolae Ceausescu). فقد حضر الراوي ظروفها لأنه رافق الزعيم في جولته الأوربية في إطار المساعي الدبلوماسية لضمان مساندة المغرب ودعمه من أجل استرجاع أراضيه الصحراوية المستعمرة من طرف إسبانيا. ولم تمنع هذه الوفاة من مواصلة النضال من أجل تحقيق مشروع علال الفاسي، بخصوص الانخراط بكثافة في دعم الوحدة الوطنية. وفي ذات الإطار كشف بوسنة عن تفاصيل استدعائه في سرية مطلقة بمعية عبد الرحيم بوعبيد من طرف الملك الذي أطلعها، بعد أن أديا القسم، على مشروع المسيرة الخضراء. وأسند لهما مهمة شرح وتوضيح أبعاد وأهداف المشروع على المستوى الخارجي.

وأفصح الفصل الأخير من هذه المذكرات عن جزئيات مهمة بخصوص تحولات العقدين الأخيرين من القرن الماضي، لاسيما بعد العفو عن مجموعة من المعتقلين السياسيين، وإنشاء المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان (ماي 1990)، وتعميق التحالف بين حزب الاستقلال والقوى الاشتراكية داخل البرلمان، وتأسيس الكتلة الوطنية الديموقراطية. وكان آخر ما انتهت به هذه الشهادات هو حيثيات تحلي بوسنة عن مهامه كأمين عام لحزب الاستقلال نهاية القرن 20م. غير أن حضوره السياسي سيتواصل خلال العهد الجديد مع تعيينه من قبل الملك محمد السادس على رأس اللجنة الاستشارية المكلفة بمراجعة مدونة الأحوال الشخصية سنة 2003.

وفي الختام، يمثل هذا العمل وثيقة تاريخية مهمة جدا تسمح بالوقوف عند قضايا عديدة في تاريخ المغرب الراهن. وتتيح قراءته إمكانية التعرف على جوانب من تمثلات النخبة الوطنية ومواقفها من عدة قضايا. غير أن هذه القراءة تقتضي طرح أسئلة حول الخلفيات المتحكمة في عملية السرد، وطبعا المقارنة مع باقي الشهادات أملا في إثارة مجموعة من التقاطعات والانتظامات، وتسلط مزيد من الضوء على بعض الوقائع.

إبراهيم آيت إزي
جامعة الحسن الأول، سطات
المغرب